نسرين مغربي*

الأصيل والدخيل

يجهد الإسرائيليون حفراً في التاريخ الذي يخترعون قسمه الأكبر، ويحيلونه إلى التوراة، بهدف إثبات أنهم أصليون على أرض فلسطين. فتارة هم الكنعانيون الذي تحولوا إلى اليهودية، وطوراً يعتبرون المسلمين يهوداً اضطروا إلى اتباع دين محمد هرباً من الجزية... إلخ.

هذه المقالة تتناول هذا النهج الإسرائيلي، وخصوصاً من خلال محتوى كتاب يغآل بن ـ نون، "موجز تاريخ يهوه"، ومقارنته بكتابَي "وعد الأفعى" لستيف جونز، و"متى وكيف تم اختراع الشعب اليهودي" لشلومو ساند.

النتائج البعيدة المدى للانتصار الإسرائيلي على العرب تؤكد حصراً الفرضية المريرة والتشاؤمية بأن التاريخ يكاد يكون دائماً مسرحاً لتبادل الأدوار بين الضحايا والجلادين، بين المضطهَدين المقتلَعين من المكان، والذين يصبحون مضطهِدين وأسياد المكان.

شلومو ساند، "متى وكيف تم اختراع أرض إسرائيل".

يشرح عالم الوراثة الإنجليزي ستيف جونز في مقدمة كتابه "وعد الأفعى"[1] سبب اختياره هذا العنوان، فهو يعود بالذاكرة إلى تمثال رآه في جامعة إدنبرة عندما كان طالباً يدرس فيها. وكان هذا التمثال عبارة عن قرد يمسك بيده جمجمة إنسان ويتأمله بدهشة، وهذا القرد يتربع على كومة من الكتب مكتوب على أحدها اسم داروين. وكان أحد هذه الكتب مفتوحاً على صفحة منقوش عليها باللاتينية عبارة: Eritis Sicut Deus. ويقول جونز إن هذه العبارة مقتبسة من الإصحاح الثالث في سفر التكوين، وتحيل إلى مقولة الأفعى وهي تقنع حواء بقطف الثمرة المحرمة: Eritis

* كاتبة فلسطينية مقيمة في عكا.

Sicut Deus, Scientes bonum et malum، والتي تعني "وتكونان كالله، عارفَين الخير والشر." ويعلق على هذه العبارة بقوله إن المعرفة التي يتوارثها العلماء اليوم لا تعني معرفة الخير والشر، وإنما اكتساب استبصارات عن العالم الفيزيائي، والتي يراها أكثر صدقية من استبصارات الكتب المقدسة. أمّا العنوان الفرعي للكتاب فهو "إعادة رواية الكتاب المقدس كعِلم" (The Bible Retold as Science)، فالكاتب في هذا الكتاب يحاول مقاربة بعض التيمات التي وردت في الكتاب المقدس من وجهة نظر علمية. وبما أن الحديث يدور عن الكتاب المقدس، فقد كان لا بد من التطرق إلى التاريخ اليهودي وتدحرج الجينات اليهودية على مر العصور، فالكاتب في نهاية الأمر عالم وراثة. وعلى ذكر هذه الجينات، نراه يروي حادثة وقعت له في مطار تل أبيب، فيقول:

> قبل خمسة عشر عاماً [صدر الكتاب في سنة ٢٠١٣] سافرت عبر مطار تل أبيب بعد أن قمت بجمع عينات من الحمض النووي للفلسطينيين. ولا أعرف لماذا تربصوا بي في الفحص الأمني، وحققوا معي بشأن كل صغيرة وكبيرة في أمتعتي. وعندما عثروا على علبة ملأى بأنابيب الاختبار البلاستيكية، سألوني بريبة: ما هذا؟ وبعد عشرين دقيقة حاولت فيها أن أبرر وجودي، أجبت ببرودة: هذا "لعاب عرب". فصمتوا لبرهة، لكن بعد شرح مقتضب زال التوتر. فقد ابتهج الموظفون عندما تعرفوا على مهنتي اللطيفة غير المعروفة للجمهور العريض ـ دراسة التاريخ من خلال الجينات، وانشغلوا بصورة خاصة بالسؤال إذا ما كان في إمكان الحمض النووي أن يُظهر وجود محمول وراثي خاص باليهود، يميزهم من بقية السلالات (أو على الأقل من سكان فلسطين الحاليين)، وفرحوا كثيرا عندما أخبرتهم أنهم من السلالة الحقيقية لمملكة إسرائيل. وبعد أن توطدت علاقتي بأصحاب الملابس الأمنية اقتنصت الفرصة ولمّحت لهم بأنه نظراً إلى أسباب تعود إلى الماضي غير البعيد، فإن من غير الصواب تعريف اليهود بناء على الدماء التي تسري في عروقهم، لكنهم لم يعيروا هذا الأمر أي اهتمام.[٢]

والمقصود بتلميح جونز هذا بشأن الماضي غير البعيد، هو الهولوكوست طبعاً، حين جرت تصفية اليهود بناء على هويتهم. فتعريف الهوية سيف ذو حدين. ففي ألمانيا النازية كان اليهود الفئة الضعيفة، وتعريفهم بناء على عرقهم أتاح تمييزهم سلباً، حتى آلت الأمور إلى ما آلت إليه. وبطبيعة الحال كان الانتماء إلى العرق "الآري" تميزاً إيجابياً. لكن يمكن بسهولة فهم عدم اكتراث موظفي الأمن الإسرائيليين بهذا التلميح، فالماضي "غير البعيد" أصبح وراء ظهورهم نسبياً، وهم منشغلون بالبحث عن تميز إيجابي يفرقهم عن الآخر الفلسطيني.

ولو عدنا إلى نصوص التوراة لوجدناها تعجّ بالتحذيرات من اختلاط سلالة/دماء الإسرائيليين بغيرهم. لكن كما هو معروف فإن هذا الأمر مستحيل، لأن الاختلاط سُنّة

الحياة. يقول ستيف جونز معلقاً على قصة خروج بني إسرائيل من مصر، والتي في أعقابها تم تحذيرهم من الاختلاط بالشعوب التي تسكن أرض كنعان:

> مرت البشرية على امتداد التاريخ بكثير من حالات الخروج من مصر، فقد تعرّض الإنسان العاقل (homo sapiens) مراراً وتكراراً للانقراض، وفي كل مرة كانت تسير مجموعة من الطلائعيين عبر مناطق عدائية في طريقها بحثاً عن بيت جديد. وتتحدث جيناتنا عن المنفى والتيه والكوارث، كما تتحدث عن قوة الجنس الكونية، حتى أمام مَن يحاول أن يحافظ على شعب الله المختار بمعزل عن الآخرين.[٣]

وعند حديثه عن قصة خروج بني إسرائيل، فإنه يعرّج على نقطة مهمة قائلاً:

> قصة الضربات العشر وعبور البحر وشجرة العليق المتقدة تُعتبر من أكثر القصص شهرة في التوراة. لكن بخلاف القصص التوراتية الأُخرى ليس هناك شواهد على أن هذه الأحداث وقعت فعلاً، إذ لو كانت حدثت لكان المشهد سيبدو مهولاً: ٦٠٠ ألف رجل مع عوائلهم ـ أي قرابة مليوني شخص ـ ساروا مع قطعانهم في مناطق عدائية، وتوقفوا عدة مرات في طريقهم [....] إلى أن سُمح لهم بالدخول إلى "أرض اللبن والعسل" [.... لكن] العديد من الأماكن المذكورة في التوراة كمحطات بينية توقف فيها بنو إسرائيل لم تصبح آهلة إلاّ بعد فترة زمنية [أبعد من الفترة الزمنية المرجحة في المصادر التوراتية]، كما أن الوثائق الفرعونية لم تأتِ على ذكر حدث درامي بهذا القدر، والذي لو وقع لقلص تعداد السكان في مصر إلى النصف.
>
> عندما دخل بنو إسرائيل أرض الميعاد وجدوا شعوباً أُخرى تعيش فيها، وعقدوا العزم على إبادتها. وبناء على سِفر الخروج فإن هؤلاء الرُحّل طبقوا تعاليم الرب [بإبادة السكان] بحذافيرها، لكن في حقيقة الأمر فإن بعض المدن المذكورة ضمن المدن التي تمت إبادتها، لم يكن قائماً آنذاك. والآثار التي وُجدت في الحفريات في كنعان نفسها لم تدل على حدوث طفرة كبيرة في تعداد السكان في الفترة الزمنية التي وصلت فيها جموع بني إسرائيل إليها بموجب القصة الشائعة، بل إن الآثار تشير إلى أن اليهودية نشأت حصراً بين ظهراني السكان المحليين الآخذة حضارتهم في الانهيار.[٤]

في ضوء هذه الملاحظات يمكن فهم مدى اهتمام موظفي الأمن بموروثهم الجيني، فهم المعنيون بالقصة التوراتية بشأن الخروج من مصر، والعبور، والتيه في الصحراء، والوصول إلى أرض الميعاد، ثم إبادة الشعوب التي كانت توجد فيها. فقضية الاستمرارية (البيولوجية في هذه الحال) مهمة لتقديم مزاعم الأحقية في الأرض بداعي الأسبقية (بين أمور أُخرى). لكن ستيف جونز الذي طمأن موظفي الأمن بأنهم ـ بناء على موروثهم من الجينات ـ من سلالة مملكة إسرائيل حقاً، يقول لاحقاً إن جزيئات

المورّثات اليهودية تدعم القصة التوراتية لليهود حيناً، لكنها تدحضها في كثير من الأحيان. فلا شيء مؤكداً، بل إنه ـ كما أسلفت ـ يشكك في قصة سفر الخروج من أساسها، إذ يضيف:

> تاريخ سفر الخروج بحد ذاته مثار خلاف، فهو على ما يبدو، صيغة معدّلة لنصوص أقدم، تم تجميعها نحو سنة ٥٠٠ ق.م. من طرف اليهود المنفيين في بابل، والذين حاولوا التشديد على هويتهم المتفردة والمختلفة عن هوية مستعبِديهم. وتبقى هذه القصة رمزاً سياسياً أكثر من كونها وصفاً لأحداث حقيقية وقعت فعلاً، وقد وُضعت لتترسخ في الأذهان حكاية قبيلة اختارها الرب لتكون شعبه، "هوذا شعب يسكن وحده." سفر الخروج يربط هذه المجموعة المختارة ـ أبناء وأحفاد إبراهيم ـ بالإله الأعلى الذي يمنحهم مكانة خاصة لديه، ويعطيهم بيتاً سيبقى مُلكاً لهم إلى الأبد.
>
> قصة الخروج لا تزال رمزاً بعيد الأثر، والشرق الأوسط لا يزال ممزقاً إلى اليوم بشأن الخلاف على شرعية الدولة التي تدّعي أنها سلالة المنفيين. وقد ترافق قيامها مع نزاعات عنيفة، والحرب لا تزال مستمرة إلى اليوم.[٥]

بهذه العبارات يربط جونز الماضي بالحاضر، ويضع إصبعه على الجرح، فالصراع يدور حول مَن هو الأصيل ومَن هو الدخيل في هذه البلاد. ومن هنا استماتة الجانب الإسرائيلي، والانشغال بالجينات كوثائق "بيولوجية" لتأكيد الاستمرارية، علاوة على الموروث الثقافي المتمثل في التوراة وما ورد فيها من صكوك ملكية ووعود إلهية.

ونجد هذا التمييز بين الدخيل والأصيل في كتاب "موجز تاريخ يهوه"[٦] للباحث الإسرائيلي يغآل بن ـ نون، لكنه لا يضعه في السياق التاريخي الحالي، وإنما يعود بالزمن إلى الوراء: إلى ما يميّز بني إسرائيل أنفسهم من ناحية أصولهم التاريخية، والسؤال هل هم كنعانيون، أم إنهم شعب متفرد قائم بحد ذاته؟ وفي هذا الصدد يطرح فرضية تفيد بوجود انقسام في هوية بني إسرائيل يُستدل عليه ـ بين أمور أُخرى ـ من خلال وجود إلهين أساسيين لديهم هما "إيل" (El) و"يهوه" (Yehweh)، ويقول في الفصل الرابع المعنون بـ "قصص دينية متوازية بشأن أصل الإسرائيليين":

> الفرق بين "إيل" و"يهوه" غالباً ما يعكس تعارضاً بين تراثَين بشأن أصل الإسرائيليين في النصوص التي وضعها كتّاب مملكتَي يهودا وإسرائيل في الفترة الآشورية. فعلى الرغم من أن الجانب الأدبي لهذه النصوص هو الأساطير، فإن هذه الأخيرة تحمل في طياتها بذرة أساسية من الواقع التاريخي الذي ينصّ على أن أصل الإسرائيليين هو من مجموعتين غير متكافئتين في الحجم. الأولى أصلها من كنعان وآرام، أمّا الثانية ـ وهي المجموعة الأصغر ـ فعبارة عن عبيد ومهمشين هربوا من مصر، وقطعوا الصحراء عبر أراضي مدين وأدوم، ووصلوا إلى كنعان.[٧]

ويوظف بن ـ نون، بموجب اصطلاحات مقتبسة

من حقل أصل الشعوب (ethnogenesis)، مصطلحَين هما المحلي/الأصيل (autochthon)، والدخيل/الغريب عن المكان (allochtone)، ويقول إن الأسفار التوراتية الثلاثة: الخروج، والعدد، واللاويين، تتبنّى التوجه الدخيل بشكل قطعي فيما يتعلق بأصل بني إسرائيل. وفي المقابل فإن سفرَي التكوين والقضاة يقدمان توجهاً معاكساً ـ محلياً/أصيلاً بكامله. وبناء على التوجه الدخيل، فإن بني إسرائيل غرباء، وهم مجموعة من العبيد الذين هربوا من مصر طلباً للحرية بناء على أمر إلهي، ووصلوا إلى أرض كنعان التي كانت تقطنها شعوب أُخرى، فحاربوهم لإبادتهم، ثم استوطنوا مكانهم.

أمّا التوجه المحلي الأصيل فيستنتجه الباحث من خلال تحليله للقب عبري/عبراني الذي أُطلق على الإسرائيليين، إذ يرى أن التحليل اللغوي للنصوص التوراتية يُظهر أن بني إسرائيل لم يسمّوا أنفسهم عبريين، وإنما أطلقوا على أنفسهم اسم بني إسرائيل. أمّا الأجانب ـ من المصريين أو الفلسطينيين (القدماء) ـ فكانوا يسمّونهم عبريين. وهذا اللقب ينمّ عن تحقير لهم، إذ لم يتم اعتبارهم شعباً أو عرقاً محدداً، وإنما مجرد طبقة اجتماعية دنيا. ويربط الباحث هذا الاسم بالـ "خبيرو = عفيرو"، وهم فئة من المهمشين من وسط اجتماعي متدنٍّ، يقدمون خدماتهم كمرتزقة أو كجباة أتاوات من الآخرين. وتحت العنوان الفرعي "الخبيرو ليسوا عبريين، لكن العبريين خبيرو"، يقول:

> هذه المجموعات وُجدت في الفترة الزمنية الممتدة ما بين القرنين الثامن عشر والثاني عشر قبل الميلاد في أرض كنعان، ومصر، وأكّاد، وبلاد الحثيين، وأوغاريت. وبناء على نقوش ووثائق غير توراتية يُعتبر الخبيرو مجرد طبقة اجتماعية متدنية تعيش على هامش المجتمع المدني. ففي وثائق تل العمارنة من القرن الرابع عشر ق.م. يظهر الخبيرو كمرتزقة يُغيرون على المدن الكنعانية، واسمهم تحقير للمحليين المحسوبين على هامش المجتمع المأسس، أمّا تهميشهم فيعود إلى أسباب اقتصادية [كتراكم الديون وعدم القدرة على سدادها]. وقد انتظم الخبيرو في عصابات تسرق وتنهب وتجبي الأتاوات، كما أنهم غالباً ما كانوا يعملون كمرتزقة في خدمة الحكام المتنازعين فيما بينهم.[٨]

ويورد مثالاً للخبيرو ما حدث لداود (قبل تتويجه ملكاً)، إذ تحول إلى قاطع طريق بعد هربه من الملك شاؤول، ويُمسي رئيس عصابة تجبي الأتاوات من السكان.

أمّا في مصر، فأُطلق على هذه النوعية من المجموعات اسم "الشوسو"، وكانوا يعيشون في دلتا مصر، ومنهم ينحدر سبط اللاويين بزعامة موسى وهارون، وكانوا يعبدون إلهاً يدعى يهوه. وعندما غادروا مصر عبروا الصحراء ووصلوا إلى أدوم ومدين، ثم إلى أرض كنعان. وقد انضم الشوسو إلى الإسرائيليين المحليين الذين لفظهم المجتمع الكنعاني (الخبيرو). ويطرح بن ـ نون فرضية تتقاطع مع ما أورده جونز في كتابه المذكور سابقاً، إذ يقول:

> القصة التي تم تهويلها، والتي تحتل أربعة أخماس الأسفار الخمسة الأولى

من الكتاب المقدس، ليست إلاّ خلق "واقع قومي متخيل" بواسطة ما يسمى الـ telescopism، أي تضخيم حدث هامشي بحيث يأخذ أبعاداً مبالغاً فيها، وبالتالي يتحول إلى حدث مؤسِّس. وما هذه القصة [خروج بني إسرائيل] في الحقيقة إلاّ قصة طرد مجموعة صغيرة من العبيد من مصر، ثم ترحالهم حتى جبل سعير ووصولهم إلى أرض كنعان، وفي جعبتهم إله جديد اسمه "يهوه"، بينما كان بنو إسرائيل يعبدون إلهاً آخر اسمه "إيل"، أو "عليون"، أو "إيل بيت إيل"، إو "إيل شَداي"."[٩]

وعطفاً على ذلك، يدّعي بن ـ نون أن الأبحاث الأنثروبولوجية ـ الأركيولوجية بشأن أصل الإسرائيليين، ترسم لهم صورة أقرب إلى عالم الآباء الإسرائيليين الذين وُجدوا في كنعان، منها إلى احتلال عنيف من طرفهم تمت خلاله إبادة السكان المحليين بقيادة يهوشوع بن نون. وفي رأيي، فإن هذا الادعاء يحمل في طياته تبرئة لساحة بني إسرائيل من تهمة التطهير العرقي الذي مورس بحق الشعوب الكنعانية، وهذه نقطة حساسة في الوقت الراهن بالنسبة إلى الذين يروّجون لمفهوم الضحية المطلقة المنسوبة إلى الشعب اليهودي. وفكرة التطهير العرقي من طرف اليهودي تصوّره كجلاّد، الأمر الذي يعني حدوث مفارقة ذهنية غير محمودة. لكن تبقى الإشكالية ـ سواء حدثت عملية الإبادة أم لم تحدث ـ بأن التوراة بنصوصها حضّت على هذه الإبادة وبأمر الهي.

بعدها يجمل بن ـ نون ما يسوقه من آراء، بقوله: "خلاصة الأمر، يمكن القول إن الإسرائيليين او 'بني إسرائيل' هم كنعانيون سكنوا خارج المدن الكنعانية، وانضم إليهم لاحقاً رُحّل الشوسو من دلتا مصر."[١٠]

ويضيف أن هذا هو سبب الازدواجية في اسم إله بني إسرائيل ـ "إيل" و"يهوه". ويمكن تقفّي هذه الازدواجية عبر الأسماء، فاسم يهوه يتجلى في أسماء مثل يهوناتان، ويهوشوع، ويهوشفاط عندما يأتي كبادئة، وحين يأتي في ختام الاسم فإنه يصبح "ياهو" مثل شمرياهو، يرمياهو. أمّا الإله "إيل" فيظهر كبادئة في اسم إليشع، أو كخاتمة في إسرائيل وجبريئيل.

في الختام يتساءل بن ـ نون: ماذا حدث للكنعانيين؟ ويجيب بأن عددهم تقلص وحلّ محلهم القرويون، وأنهم بالتدريج تحولوا إلى إسرائيليين بفضل حكم مملكتَي إسرائيل ويهودا. وأنا هنا لا أوافق الباحث في هذا الأمر لسببين:

الأول أنه يناقض نفسه، إذ يقول سابقاً في الفصل نفسه: "الانشغال الكبير بالشعوب الكنعانية التي لم يتمكن بنو إسرائيل من طردهم إو إبادتهم نظراً إلى قوتهم العسكرية، 'لأن لهم مركبات حديد' (سفر القضاة، الإصحاح الأول، الآية ١٩)، أو كعقاب من يهوه لشعبه (سفر القضاة، الإصحاحان العشرون والحادي والعشرون)، يعكس حقيقة أن سكان مملكة يهودا ـ وبدرجة لا تقل عنهم سكان مملكة إسرائيل ـ كانوا متنوعين [في تركيبتهم السكانية] خلال حكم المملكتين."[١١]

السبب الثاني، هو أنه من المعروف أن سكان مملكة إسرائيل حصراً اشتهروا بعبادة الآلهة الكنعانيين (كالإله بعل) إلى جانب يهوه أو إيل، وأقاموا لها المذابح، الأمر الذي أدى إلى توجيه انتقادات شديدة إليهم. وهذا

يفنّد تحول الكنعانيين إلى إسرائيليين، فالمسار معاكس وهو التأثير الكنعاني في الإرث الإسرائيلي.

هذا البحث يحمل في رأيي أبعاداً سياسية، فهذه الاستماتة التي نلمسها في يومنا هذا لدى الإسرائيليين في إثبات أحقيتهم في "أرض إسرائيل" بشتى الوسائل تجد صدى لها هنا. فالادعاء الأساسي هو أن بني إسرائيل هم كنعانيون أصليون وليسوا دخلاء جاؤوا من مصر وأبادوا الشعوب التي وُجدت على أرض كنعان. بل إن الباحث يذهب إلى أكثر من ذلك بادعاء أن الكنعانيين أنفسهم تحولوا إلى إسرائيليين. وأجد هذين الادعاءين جزءاً من "سباق التسلح" بالادعاءات والادعاءات المضادة بين الفلسطينيين والإسرائيليين بشأن مَن هو الدخيل ومَن هو الأصيل، ومَن السابق ومَن اللاحق، ومَن هو حفيد/وريث الكنعانيين.

لقد صدر كتاب يغآل بن ـ نون هذا في سنة ٢٠١٦، لكن فكرة أن سكان أرض كنعان/فلسطين هم يهود/إسرائيليون ليست غريبة عن الفكر الصهيوني منذ عشرات الأعوام، وإن لم تكن مدعّمة بهذا القالب البحثي العلمي. أمّا إسقاطاتها وتفصيلاتها فيمكن تتبّع آثارها في كتاب "متى وكيف تم اختراع الشعب اليهودي" لشلومو ساند.[١٢] فقد ورد في البند العاشر الفرعي من الفصل الثالث والمعنون بـ "تذكر ونسيان شعب البلاد"، أنه ساد اعتقاد في أوساط المثقفين في الحركة الصهيونية في بدايات الاستيطان، وقبل تبلور القومية الفلسطينية، أن الأغلبية العظمى من سكان البلاد هم عملياً من سلالة اليهود. ويورد ساند اقتباسات لكاتب يدعى برينكر رأى أنه "على عكس الأسماء اليونانية والرومانية التي أُطلقت على مختلف البلدات التي دُمرت فيما بعد، فإن كثيراً من الأسماء العبرية بقي على حاله، وإن عدداً لا يستهان به من الأماكن المقدسة بالنسبة إلى سكان البلاد هو عبارة عن قبور مشتركة للمسلمين واليهود على حد سواء. كما أن اللغة العربية غنية باللهجتين العبرية والآرامية اللتين تختلفان عن اللغة العربية الفصحى واللغات المحكية الأُخرى. علاوة على ذلك، فإن السكان لا يعرّفون أنفسهم كعرب، وإنما كمسلمين أو فلاحين، والبدو حصراً يعرّفون أنفسهم كعرب."[١٣]

ولم يكن برينكر وحيداً في هذا السياق، فقد ألّف بن ـ غوريون في سنة ١٩١٨ (بالاشتراك مع يتسحاق بن تسفي) كتاباً بعنوان "أرض إسرائيل في الماضي والحاضر" ويقتبس منه ساند ما يلي:

> لا ينتمي الفلاحون من ناحية أصولهم إلى المحتلين العرب الذين حكموا أرض إسرائيل وسورية في القرن السابع. فالمنتصرون العرب لم يدمروا المجتمع الزراعي الذي وجدوه في البلاد، وإنما طردوا الحكام البيزنطيين الغرباء، ولم يمسوا السكان المحليين بأي سوء. كما أن العرب لم يكترثوا بالاستيطان، فهم في بلادهم الأصلية لم يعملوا بالزراعة [....] ولم يسعوا لتوفير أماكن استيطان جديدة لهم في البلاد التي احتلوها [....]. وقد انصب جل اهتمامهم في البلاد الجديدة على النواحي السياسية، الدينية والمالية: أن يحكموا وينشروا الدعوة الإسلامية ويجبوا الضرائب.[١٤]

ويضيف ساند معلقاً بأن المؤلفَين المتحمسَين أرادا "التآخي مع 'السكان الأصليين' المحليين، وآمنا بقوة بأن هذا الأمر ممكن بفضل أصلهم 'العرقي' المشترك. صحيح أن اليهود القدامى أسلموا، إلاّ إنهم اضطروا إلى فعل ذلك لأسباب مادية محضة ـ التخلص أساساً من عبء الجزية ـ الأمر الذي لا يمكن اعتباره بأي وجه من الوجوه خيانة قومية."[١٥]

لكن حساب البيدر كان مختلفاً عن حساب الحقل ـ كما يقول المثل ـ إذ نشبت ثورة البراق في سنة ١٩٢٩، ثم الثورة الفلسطينية الكبرى في سنة ١٩٣٦، اللتان نسفتا أسس هذا التوجه الفكري. وبناء على ساند فإن "ظهور القومية المحلية [الفلسطينية] أوضحت للمثقفين المستوطنين بما لا يقبل الشك، أن لا مستقبل لهذا الفكر المتمركز ذاتياً. فالنظرة 'الاحتوائية' التي خطرت في بال الصهيونيين افترضت أنه يمكن بسهولة صهر ثقافة شرقية 'متدنية وبدائية'، لكنها صحت من سكرتها الاستشراقية فور اندلاع المقاومة العنيفة الأولى من جانب أصحاب هذه الثقافة. وفعلاً تبخرت منذ ذلك الوقت سلالة الفلاحين اليهود من الذاكرة القومية اليهودية، ودخلت في غياهب النسيان. وبسرعة تحوّل الفلاحون الفلسطينيون الحاليون بالنسبة إلى المؤتمنين على الذاكرة إلى مهاجرين عرب وصلوا بجموعهم في القرن التاسع عشر إلى بلاد شبه خاوية. واستمر هؤلاء المهاجرون في التدفق إليها في القرن العشرين في أعقاب تطور الاقتصاد الصهيوني، والذي بناء على الأسطورة 'جذب' الآلاف من الأيدي 'العاملة' غير اليهودية."[١٦]

ويعقب ساند بقوله إن هؤلاء المثقفين تنبهوا إلى أن "خطاب الاحتواء وفكرة الاستمرارية العرقية اليهودية لدى السكان الأصليين كان من الممكن أن يمنحاهم 'حقوقاً تاريخية' بقدر أكبر من اللازم. لذلك كان من المطلوب وأدهما بأقصى سرعة ومحوهما من الأجندة القومية." ويضيف بما يشبه السخرية: "ومن الآن فصاعداً، لم يغيّر الإسلام ديانة اليهود، وإنما ببساطة سلبهم أراضيهم."[١٧]

هذا التعامل المزاجي والفوقي، بل المصلحي، مع تاريخ الفلسطينيين سكان البلاد يُظهر بوضوح التمركز الذاتي الذي أشار إليه ساند ـ وبحق ـ لدى مثقفين من الحركة الصهيونية. إذ حيكت للفلسطينيين سردية تاريخية متخيلة وفقاً للأهواء الصهيونية، فهم السكان الأصليون شرط أن يكونوا يهوداً في الأصل غيروا ديانتهم لأسباب مادية، لكنهم دخلاء إذا ما تمسكوا بثقافتهم وعروبتهم، ومجرد مهاجرين أتوا إلى بلاد فارغة من السكان طلباً للرزق!

في الختام أجد من الملائم التذكير بهذا المقطع من حوار أُجري مع إدوارد سعيد، وهو موجود في موقع "يوتيوب"، والترجمة مأخوذة منه، حين سئل: هل للصهيونيين نصيب تاريخي في أرض إسرائيل؟ فأجاب:

> طبعاً، لكني لن أخلص إلى أن نصيب اليهود (أو الصهيونيين) هو النصيب الوحيد أو النصيب الأكبر، بل سأقول إن لهم نصيباً، ولكثيرين غيرهم نصيباً أيضاً. للعرب نصيب أكبر بلا شك، فقد كان لهم تاريخ أطول من المكوث الفعلي في فلسطين من اليهود. لو تأملت تاريخ فلسطين، ستجد أبحاثاً شيقة أجراها علماء تاريخ الإنجيل في هذا المجال،

وستجد أن المدة التي سُميت في العهد القديم بزمن بني إسرائيل، التي مكث فيها اليهود فعلياً في فلسطين واستحوذوا عليها، تساوي ٢٠٠ إلى ٢٥٠ سنة. لكن كان هناك أيضاً الآشوريون والبابليون والفلسطينيون والكنعانيون وغيرهم من الشعوب في ذلك الوقت وقبله وبعده. وعين التعصب أن نأخذ أحد تلك الشعوب وأن نقول: "هؤلاء هم مالكو هذه الأرض." لأن السبيل الوحيد لإثبات ذلك هو أن تقول: "الله وهبها لنا"، لكن حتى المسيحيين يؤمنون أن الله وهبها لهم، والمسلمون كذلك، لكن ليست هذه حجة عقلانية. لذلك أعتقد أن مَن لهم تاريخ مكوث في تلك الأرض، ويدخل في ذلك اليهود والعرب طبعاً، لهم نصيب. لكن ـ وهذا مهم للغاية ـ لا أعتقد أن أي نصيب، سواء أكان من الله [....] أو من إمبراطور، يعلو على أي نصيب سواه، ويسمح لصاحبه بإجلاء السكان. وهنا المقصد. هذا شيء مهم جداً. لم أُنكر قط أن لليهود نصيباً، طبعاً لهم نصيب، لكن هل هذا النصيب يشرعن لهم أن يقولوا للفلسطينيين: "يجب أن تغادروا هذا المنزل لأنه لنا منذ ٣٠٠٠ سنة؟" "صحيح أني قدمت من بولندا أو بروكلين، لكن حقي في امتلاك هذا المنزل أولى من حقك، فاخرج." أنا آسف، لكني أختلف مع هذا المنطق.[١٨] ■

المصادر

١ ستيف جونز، "وعد الأفعى" (بالعبرية)، (تل أبيب: سفري عليات هجاج، ٢٠١٨).
٢ المصدر نفسه، ص ٤٣.
٣ المصدر نفسه، ص ٢٢٩ – ٢٣٠.
٤ المصدر نفسه، ص ٢٢٥ – ٢٢٦.
٥ المصدر نفسه، ص ٢٢٦ – ٢٢٧.
٦ يغآل بن ـ نون، "موجز تاريخ يهوه" (بالعبرية)، (تل أبيب: رسلينغ، ٢٠١٦).
٧ المصدر نفسه، ص ١٩٤.
٨ المصدر نفسه، ص ٢١٤.
٩ المصدر نفسه، ص ٢١٦.
١٠ المصدر نفسه، ص ٢٢٣.
١١ المصدر نفسه، ص ١٩٨.
١٢ صدر الكتاب بالعبرية عن دار نشر رسلينغ في تل أبيب في سنة ٢٠٠٨، وهي النسخة التي تعتمدها كاتبة المقالة. وقد تُرجم إلى ثلاث ترجمات هي: ١) الترجمة العربية: "اختراع الشعب اليهودي"، ترجمة سعيد عياش، تدقيق وتقديم أنطوان شلحت (عمّان: "الأهلية للنشر والتوزيع"، ٢٠١١)؛ الترجمة

الإنجليزية: *The Invention of the Jewish People* (London: Verso Books, 2009)؛ الترجمة الفرنسية: *Comment le peuple juif fut inventé* (Paris: Editions Flammarion, 2010).

١٣ المصدر نفسه، ص ١٧٨.

١٤ المصدر نفسه، ص ١٧٩.

١٥ المصدر نفسه، ص ١٨٠.

١٦ المصدر نفسه، ص ١٨١.

١٧ المصدر نفسه، ص ١٨١ – ١٨٢.

١٨ يمكن مشاهدة الحوار في موقع Youtube، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=dq3xEpAQnSs

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

التطهير العرقي في فلسطين

إيلان بابِهْ

٣٧٤ صفحة ١٨ دولاراً